

الحُبُّ

في التراث العَرَبِيِّ الْإِسْلَامِيِّ

د. عبد الكويم اليافي

يطلعنا علم السكان الحديث أن مولوداً يولد كل ثانية تقريباً في العالم .
هذا المولود نشأ عن الحب بل عن الوصال في الحب . ولكن الوصال في الحب
الذى نشأ عنه العمل قد تقدم عليه ورافقه وتأخر عنه عدد كثير من
أحوال الوصال الجارى في ظل الحب . ونستطيع أن تخيل في كل لحظة من
اللحظات الزمنية مدى الحب الواسع المنتشر في الأرض بين الناس .

وقد نتجاوز بالخيال النوع الانساني فتصور أحوال الحيوان بأنواعه المختلفة من
ثدييات وطيور وأسماك وبرمائيات وزواحف اذا اقتصرنا على الفقاريات فقط دون ذكر
المفصليات والرخويات وغيرها فتسع بنا آفاق الحب ونزع الكائنات بعضها الى بعض
واعتناقها زوجين داخل النوع أو الصنف .

وقد يتخطى الخيال بنا أكثر من ذلك فنفكري أنواع النبات وفصاله وتكاثره المتعدد
الأشكال .

كذلك قد نتطرق في علاقات الأجسام المادية بعضها بعض بل في العناصر الدقيقة
الفيزيائية التي تتالف زوجين زوجين ..

وعندئذ تتضح لنا فكرة الشاعر الاسلامي عبدالرحمن الجامي في مقدمة كتابه ليلي
والمحنون حين شبه هذا العالم ببستان الحب وشبه القبة الزرقاء السماوية بنيلوفر هذا
البستان . وكذلك نفهم كيف ذهب ابن سينا في رسالة صغيرة كتبها في العشق خلافاً لبعض
المفكرين اليونان القدماء أمثال أميدقلس الذي كان يرى البغض والكراهية ثاوين في
أساس الكون والتجمع الانساني فرأى الشيخ الرئيس سريان قوة العشق في جميع الكائنات

من هويات عامة وبسائط حية وصور نباتية ونفوس حيوانية وأناس ذكور وإناث . ويتردج مؤلف القانون والشفاء هكذا إلى ذكر عشق النفوس العليا التي ينعتها باللهية وينتهي إلى أن كل واحد من الموجودات يعشق الخير المطلق عشقاً غريزياً وأن الخبر المطلق يتجلّى لعاشقه إلا أن قبول الموجودات لتجليه واتصالها به على التفاوت وأن غاية القرب منه هو قبول لتجليه على الحقيقة أعني على أكمل ما في الامكان .

ذلك يتضح لنا بعض أسرار الآية الكريمة : « سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمنون » .

لابد لنا بعد هذا الاتساع من أن نعود فنضيق نطاق الموضوع ونبحث في الحب الإنساني وحده وفي بعض صفاتيه وأشكالاته . ولذلك نعتمد تحليل أبي حامد الغزالى للمحبة في كتاب المحبة والشوق والانس والرضا من سفره الواسع الكبير احياء علوم الدين . فقد بيّن أول الأمر أن المحبة مقتنة بالمرفق والأدراك فلا يتصرف جماد بالحب مثلاً . وتنقسم المدركات « إلى ما يوافق طبع المدرك ويلازمه ويلذه وإلى ما ينافيه وينافره ويؤلمه وإلى ما لا يؤثر منه بایلام والذاذ . وكل ما في ادراكه لذاته وراحة فهو محظوظ عند المدرك ، وما في ادراكه ألم فهو مبغوض عند المدرك ، وما يخلو عن استتعقاب ألم ولذاته لا يوصف بكلمة محبوباً ولا مكرهها . فان كل لذيد محظوظ عند الملتذبه . ومعنى كونه محظوظاً أن في الطبع ميلاً إليه ومعني كونه مبغوضاً أن في الطبع نفرة عنه . فالعجب عبارة عن ميل الطبع إلى الشيء المذنب تأكيد ذلك الميل وقوى سمي عشقاً » .

ثم يرى أبو حامد « أن العب لما كان تابعاً للأدراك انقسم بحسب المدركات والحواس . فلكل حاسة ادراك لنوع من المدركات ، ولكل واحد منها لذاته في بعض المدركات . وللطبع بسبب تلك اللذة ميل إليها فكانت محبوبات عند الطبع السليم . فلذة العين في الإبصار وأدراك المبصرات الجميلة والصور المليحة الحسنة المستلذة . ولذة الأذن في النغمات الطيبة الموزونة . ولذة الشم في الروائح الطيبة . ولذة الذوق في الطعوم . ولذة اللمس في اللين والنعومة . »

ويقرر الغزالى تمهدأ لما يريد الانتهاء إليه أن المحظوظ الأول عند كل حبي نفسه وذاته أي أن في طبعه ميلاً إلى دوام وجوده . فدوام الوجود محظوظ ، وكذلك كمال الوجود لأن الناقص فاقد للكمال . ويترتب على هذا ميل الإنسان إلى من يحسن إليه ثم الميل إلى الشيء بذاته كحب الأشياء المتعلية بالحسن والجمال والكمال .

ثم يترقى مؤلف الاحياء فيقرر أن الجمال والحسن ليس مقصوراً على تناسب الخلقة والشكل وحسن اللون بل هو موجود في غير المحسوسات اذ يقال هذا خلق حسن وهذا علم حسن وهذه سيرة حسنة وهذه أخلاق حسنة . وإنما الأخلاق الجميلة يراد بها العلم والعقل والعرفة والشجاعة والتقوى والكرم والمرءة وسائل خلال الخير . وشيء من هذه الصفات لا يدرك بالحواس الخمس بل يدرك بنور البصيرة الباطنة . وكل هذه الحال الجميلة

محبوبه ، والموصوف بها محبوب بالطبع عندمن عرف صفاته . وكذلك ينضم الى ما سبق من أسباب الحب ائتلاف النفوس وتناسبها .

ثم ان الجمال والحسن وسائل الصفات الجميلة الحسنى التي هي في أقصى درجات الكمال لا يتصور اجتماعها الا في حق الله تعالى . فلا يستحق المحبة بالحقيقة الا الله سبحانه وتعالى .

وهكذا يتبيّن في هذا التحليل المعمق والترتيب الصاعد ارتکاز الحضارة العربية الاسلامية على النظر المتفائل الى الكون لأنّ الخير والجمال والكمال هي الأمور الموجهة لتصرف الناس وأعمالهم والمعيّنة لغاياتهم وأهدافهم اذ هم جمیعاً في غضون حیواتهم يتّشوفون للقيم العليا التي هي من خصائص الكيان الانساني ومن مسوغات رفعته وعليائه .

في كل ثانية يولد مولود ولكن في كل دقيقة يتوفى متوفى . الى جانب الولادة تُشوى الوفاة . الى جانب الحب يسري ال�لاك .

فالحب والهلاك والحياة والموت صنوان متأخذه متداخلة . هي كلها مختلطة في قوام الكون ونسخ تركيبه ولكن الناس تحامياً للفكرة . الهلاك والموت يستأنسون بالحب والحياة ويجرّون على سننها وأحكامها . ولذلك نجد المؤلفين في تاريخ التراث العربي قد أكثروا منتناول أخبار الحب وكتبوا فيه الكتب الكثيرة سواء أقصرواها عليه أم أدمجوها في مؤلفاتهم المتعددة .

□ بعض كتب التراث :

كتب التراث التي تبحث الحب الانساني كثيرة ولا بأس أن نورد أسماء بعضها المشهور ليظهر اتساع هذا البحث ومكانته في الحضارة العربية الاسلامية . فمن أقدم هذه الكتب :

١ - كتاب « الزهرة » :

مؤلفه محمد بن داود الاصفهاني المعروف بالظاهري المتوفى ٢٩٦ أو ٢٩٧ هـ من أكابر علماء عصره وفقهائهم وأذكيائهم يقول في مقدمته :

« استودعته مائة باب ضمنت كل باب مئة بيت أذكر في خمسين باباً جهات الهوى وأحكامه وتصاريفه وأحواله وأذكر في الخمسين الثانية آفانين الشعر الباقيه وأقتصر في ذلك على قليل من كثير وأقتتنع من كل فن باليسيير اذ كان ما نقصده أكثر من أن يتضمنه كتاب أو يعبر عن حقيقته خطاب » . ثم يقول : « ومن لم يرج الكمال في الاكثار كان حقيقة أن يقنع بالاختصار » .

هذا وللمؤلف قصة مشهورة في الحب مذكورة في الكتب . وهو معاصر لابن الرومي، حكى أبو بكر بن أبي الدنيا أنه حضر مجلس محمد (في الفتيا) فجاءه رجل فدفع إليه رقعة فأخذها وتأملها طويلاً وظن تلامذته أنها مسألة فقلبها وكتب في ظهرها ودفعها فإذا الرجل علي بن العباس المعروف بابن الرومي الشاعر وإذا في الرقعة مكتوب :

يا بن داود يا فقيه العراق
هل عليهن في البروح قصاص
أم مباح لها دم العشاق
وإذا الجواب :

كيف يفتيكم قتيل صريع
بسهام الفراق والاشتياق
عند داود من قتيل الفراق
وقتيل التلاق أحسن حال

٢ - كتاب « طوق العمامة في الالفة والألاف »

للامام أبي محمد علي بن حزم الأندلسي المتوفى سنة ٤٥٦ كان وزيراً للمستظاهر باش ثم للمعتضد بالله - كتبه لمن استكتبه في هذا الموضوع فهو يقول في المقدمة : « كلفتنني - أعزك الله - أن أصنف لك رسالة في صفة الحب ومعانيه وأسبابه وأعراضه وما يقع فيه قوله على سبيل الحقيقة لا متزيداً ولا مفيناً، لكن مورداً لما يحضرني على وجهه وبحسب وقوعه حيث انتهى حفظي وسعة باعي فيما ذكره فبادرت إلى مرغوبك ولو لا الإيجاب لك لما تكلفته . »

قسم كتابه على ثلاثة باباً في أصول الحب وفي أعراضه وصفاته المحمودة والمذمومة والآفات الدخيلة عليه . وهو من أجود الكتب المفيدة في هذا المجال إذ يتصف بالبحث والتنقير واعتماد المشاهدة واللحاظة إلى الجوانب الأدبية والشعرية . ومن مثل صاحب كتابي « المحلّي » و « الفصل » في جودة التأليف وسعة الاطلاع ودقّة الكتابة ولقانة البديهة وحسن الذاكرة؟!

ولابن حزم رسالة صغيرة في مداواة النفوس وتهذيب الأخلاق والزهد في الرذائل خصص فصلاً فيها لشرح أنواع المحبة طبعت عدة مرات ثم طبعت في مجموعة الروائع الإنسانية (السلسلة العربية) باشراف الأونيسكو بعنوان كتاب الأخلاق والسير وترجمت إلى الفرنسية . وفي المكتبة الظاهرية مخطوط طنان لها يرى مؤلفها أن « المحبة كلها جنس واحد . ورسمها أنها الرغبة في المعحب وكراهة منافره والرغبة في المقارضة منه بالمحببة . وإنما قدر الناس أنها تختلف من أجل اختلاف الأغراض فيها . وإنما اختلفت الأغراض من أجل اختلاف الأطماء وتزايدها وانحسامها . فتكون المحبة لله عن وجہ وفيه وللاتفاق على بعض المطالب وللأب والابن والقرابة والصديق وللسلطان ولذات الفراش وللمحسن وللأمول وللمعشوّق . فهذا كلّه جنس واحد اختلفت أنواعه كما وصفت لك على قدر الطمع فيما ينال فلذلك اختلفت وجوه المحبة . »

٣ - كتاب « مصارع العشاق في شارع الأشواق » :

للقاضي أبي المعالي عبدالعزيز بن عبد الملك المتوفى سنة ٤٩٤
٤ - « مصارع العشاق » :

للشيخ أبي محمد جعفر بن أحمد بن الحسين السراج البغدادي المتوفى سنة ٥٠٠

طبع في مطبعة الجوائب عام ١٣٠٢ هـ وهو متداول وقد عقده مؤلفه على اثنين وعشرين جزءاً كتب على وجه كل جزء ثلاثة أبيات من نظمته . وعلى وجه الجزء الأول هذه الأبيات:

هذا كتاب مصارع العشاق
صرعتهم أيدي نوى وفرق
تصنيف من لدغ الفراق فؤاده
وتطلب الرامي فعزّ الرامي
فإذا تصفحه الليبب رثى لهم
أسرى الهوى أيسوا من الاطلاق

٥ - «منازل الأحباب ومنازل الألباب»

لشهاب الدين محمود بن سلمان بن فهد الحلبي ثم الدمشقي الحنفيي صاحب ديوان الانشاء المتوفى بدمشق سنة ٧٢٥ .

٦ - «روضة المحبين ونزهة المشتاقين» :

للشيخ شمس الدين أبي عبدالله محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية المتوفي سنة ٧٥١ أوله : «الحمد لله الذي جعل المحبة الى الظفر بالمحبوب سبيلاً ، ونصب طاعته والخضوع له على صدق المحبة دليلاً » ثم يقول والضمير يرجع الى المحبة ويستعملها بالمعنى الواسع الذي يشبه استعمال فرويد لها أو كارل غستاف يونغ مستجيبةً للفقرات المزدوجة بالسجع . « وصرّفها أنواعاً وأقساماً بين بريته وفصيلاتها تفصيلاً فجعل كل محبوب لمحبه نصيباً ، مخططاً كان أو مصيباً وجعله منعماً أو قتيلاً . فقسمها بين محب الرحمن ومحب الأوثان ومحب النيران ومحب الصليبان ومحب الأوطان ومحب الاخوان ومحب النساء ومحب الصبيان ومحب الأئمان ومحب الایمان ومحب الألحان ومحب القرآن ، وفضل أهل محبته ومحبة كتابه ورسوله على سائر المحبين تفضيلاً . فبالمحبة وللمحبة وجدت الأرض والسموات وعليها فطرت المخلوقات ولها تحركت الأفلاك الدائيرات ، وبها وصلت الحركات الى غاياتها واتصلت بداياتها بنهاياتها . وبها ظفرت النفوس بمطالبها . وحصلت على نيل مآربها وتخلصت من معاطبها . »

وجعل ابن قيم الجوزية كتابه تسعه وعشرين باباً ذكر في الباب الأول أسماء المحبة ووجد أن العرب قد وضعت لها قريباً من ستين اسمأً يذكرها المؤلف ثم يشرع في الباب الثاني في شرح اشتقاء تلك الألفاظ ويوضح في الباب الثالث نسبة هذه الأسماء بعضها الى بعض ثم يعالج في الأبواب الباقيه جوانب المحبة وما يتعلق بها .

٧ - «الواضح المبين فيمن استشهد من المحبين» :

لعلاء الدين مُغلطاي بن قليج المتوفي سنة ٧٦٢ .

٨ - «ديوان الصباة» :

لشهاب الدين أحمد بن أبي حجلة المغربي مولداً الدمشقي منشأ نزيل القاهرة المتوفي سنة ٧٧٦ . يستهل بقوله : «الحمد لله الذي جعل للعاشقين بأحكام الغرام رضا ، وحبب اليهم الموت في حب من يهونه فلا تكن يا فتى بالعدل معترضاً . فكم فيه من عاشق ومحب صادق :

رأى فحب فرام الوصل فامتنعوا فسام صبرا فأعيا نيله فقضى
ثم يقول : « أما بعد فان كتابنا هذاكما قيل :

كتاب حوى أخبار من قتل الهوى وسار بهم في العب في كل مذهب مقاطيعه مثل المواصل لم تزل تشبب فيه بالرباب وزينب

فهم ما هم ، (تعرفهم بسيماهم)^(١) . قد تركهم الهوى (كهشيم المحظوظ)^(٢) ، وأصبحوا من علة الجوى على قسمين : (فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر)^(٣) فهم مابين قتيل وشهيد ، وشقى وسعيد ، على اختلاف طبقاتهم وأشكالهم ، وتبادر مراتبهم وأحوالهم وهو يشير الى اطلاعه على كتاب « منازل الأحباب ومنازه الألباب » وعلى كتاب « طوق الحمامات » ، ويدعى تفضيل كتابه عليهما فيقول : « فربع كتابنا بذكر العامريه معمور ، وهو بالنسبة الى ما ألفه الشهاب محمودمشكور . ومن وقف عليه علم صحة هذا الكلام ، وأنشد في تصديق هذه الدعوى (اذا قالت حدام)^(٤) (مؤلف طوق العمامة بالنسبة الى حجلته يجعل ، وصاحب منازل الأحباب من عرف محل فبات دون المنزل)^(٥) . ثم يردف : فان قلت : (الفضل للمتقدم)^(٦) و (هل غادر الشعرا من متقدم)^(٧) قلت : نعم ! (٠٠ في الخمر معنى ليس في العنب)^(٨) ، وأحسن ما في الطاووس الذنب . »

ومن الجدير بالذكر أن ابن أبي حجلة ولد في السنة التي توفي فيها الشهاب محمود صاحب كتاب « منازل الأحباب » .

وفي ديوان الصباة فقرات كثيرة تشبه ما ورد في كتاب « روضة المعين » . وكان القدماء كثيراً ما ينقل بعضهم من بعض .

٩ - « مشارع الأسواق الى مصارع العشاق ومثير الغرام الى دار السلام » :

لأحمد بن ابراهيمالمعروف بابن النحاس الدمشقي المتوفى سنة ٨١٤ - أو ٨٣٨ وهو في مجلد كبير حافل في معناه كما يقول مؤلف « الضوء اللامع » وقد اختصره مؤلفه .

١٠ - « الفائق في الموعظ والرقائق »:

للشيخ صدر الدين محمد بن محمد البارزي المتوفى سنة ٨٥٧ التقى على حد تعبير حاجي خليفة من كتاب مصارع العشاق في شارع الأشواق للقاضي أبي المعالي .

١١ - « أسواق الأشواق من مصارع العشاق » :

لابراهيم بن عمر بن حسن الرّبّاط البقاعي نزيل القاهرة ثم دمشق المتوفى سنة ٨٨٥ . وقد عمد مؤلفه الى كتاب ابن السراج فرتبه وهذبه وزاده من نوادر الأخبار وأدخل فيه جميع كتاب الحافظ مغلطاي المسمى الواضح المعين في ذكر من استشهد من المعين ، وذكر جميع حكايات منازل الأحباب ومنازه الألباب لشيخه الشهاب فجاء في مقدمة عشرة أبواب على حد وصف حاجي خليفة له .

١٢ - «السلسل الرائق المنتجب من الفائق» :

للشيخ ابراهيم بن يوسف المعروف بابن الحنبلي الحنفي المتوفى سنة ٩٥٩ انتخبه مؤلفه كما أشار هو نفسه من كتاب «الفائق» .

١٣ - «تزين الأسواق بتفصيل أشواق العشاق» :

للشيخ داود الانطاكي الضرير مؤلف التذكرة الطبية المتوفى سنة ١٠٠٨ استهله بقوله :

« الحمد لله الذي أطلع في بروج اعتدال القدد شموس المحاسن والجمال وأهل في منازل السعود بدور اللطائف والكمال ، وزين أغصان القدد برمان النهود ، ورياضن الوجه بنرجس اللحاظ وورد الغدوة ، وألف بين ما نظم في الشور وقلائد النحور ، وجعل ترسيخ الأ بصار لذوي البصائر ولطافة الأفكار من أسباب الافتتان بتأمل الحسان ، فنزّلهم وان اختللت أغراضهم منزلة الأغراض لرشق قسي الحواجد بسهام الألحاظ » وقد اعتمد هذا المؤلف العلامة على كتاب «أسواع الأشواق» المأخوذ من كتاب «مصارع العشاق» ، وكذلك جمع فيه «ديوان الصباية» . وهكذا يبدو بين طوائف كتب الآداب شجرات الأنساب بعضها يستفيد ويتجذر من بعض في شتى الأغراض والأراب .

هذا ونلاحظ أن هؤلاء المؤلفين من الشيوخ والفقهاء والعلماء . وكل هذه الكتب في الحب الإنساني يضاف إليها ما جاء من أخبار العشق والعشاق في كتب الأدب ولا سيما الموسوعية كتاب الأغاني وجميع الروايات والسير الشعبية كألف ليلة وليلة وجميع دواوين الشعراء ، ثم فوق ذلك كله كتب الحب الصوفي الكثيرة التي لا تكاد تُحصى (٩) .

□ ملاد الحب وما سيه وتحليل الألفاظ الدالة عليه :

الحضارة العربية الإسلامية متوازنة العناصر متعادلة الجوانب هي حضارة الوسط . « وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس » (٢ - ١٤٣) والوسط هنا ليس معناه الفاتر بين طرفين ولكن معناه ذروة الجبل بين منحدرين، معناه مركز الدائرة الذي هو السر في وجودها . والناس في نظر تلك الحضارة مسؤولون عن عمارة الدنيا وعمارة الآخرة . عن عمارة الدنيا المؤدية إلى عمارة الآخرة . والطبيات فيها مباحة للناس في حدود الشرع . تشير مباحي الدنيا من بعيد إلى مباحي الآخرة الصافية . « قل من حرّ زينة الله التي أخرج لعباده والطبيات من الرزق . قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيمة » (٧ - ٣٢) .

فلا غرو أن يحفظ الدين الإسلامي على المحبة بمعناها الواسع وعلى الحب الخاص أي الحب في الزواج . ولهذا لهج الشعرا بالتنويه بالجمال وآثاره في القلوب والأحشاء وفاكهها الفقهاء وتحرשו بهم في هذا السبيل . وقد مر تعرش ابن الرومي بالفقهي الظاهري محمد ابن داود . وينسب « تزيين الأسواق » إلى أبي نواس هذه الأبيات الفكهة وليست في ديوانه (١٠)

وَخَالِدُ الْعَذَاءِ عَنْ جَابِرِ
يَرْفَعُهُ الشَّيْخُ إِلَى عَامِرِ
قَتَادَةَ الْمَاضِيِّ وَعَنْ غَابِرِ
عُلَقَهَا ذُو خَلْقٍ طَاهِرِ
عَلَى وَصَالِ الْحَافِظِ الدَّاَكِرِ
تَمَرَحَ فِي مَرْتَهَا الزَّاهِرِ
بَعْدَ وَصَالِ نَاعِمَ نَاضِرِ
بَعْدَ لَهُ مِنْ ظَالِمٍ غَادِرِ

حَدَثَنَا الْخَفَافُ عَنْ وَائِلٍ
وَمَسْعُرٍ عَنْ بَعْضِ أَصْحَابِهِ
وَابْنِ جَرِيجٍ عَنْ سَعِيدٍ وَعَنْ
قَالِوَاتِ جَمِيعًا أَيْمًا طَفْلَةَ
فَوَاصِلَتْهُ ثُمَّ دَامَتْ لَهُ
كَانَتْ لَهَا الْجَنَّةُ مِبْدُولَةَ
وَأَيْ مَعْشُوقٍ جَفَا عَاشِقًا
فَفِي عَذَابِ اللَّهِ مَثُوِي لَهُ

الْجَنَّةُ فِي الْآخِرَةِ مِبْدُولَةُ الْمُعَبَّبَةِ السَّادِجَةِ الْمُسْعَفَةِ الْمُوَاصِلَةِ وَهِيَ مَهَدَّدَةُ عِنْدِ جَفَانِهَا
بِالْجَحِيمِ . وَلَكِنَّ الشَّاعِرَ يَبْحَثُ وَهُوَ – كَمَا يَدْعُونَ – ذُو الْخُلُقِ الطَّاهِرِ فَيُلْتَمِسُ أَنْ يَشْـ
رَوَائِحَ الْجَنَّةِ فِي الدُّنْيَا ، وَمَا نَدْرِي مَا شَأْنُهُ فِي الْآخِرَةِ .

وَقَدْ نَوَهَ الشَّعْرَاءُ بِالْحُبِّ الْحُسْنِيِّ وَالْحُبِّ الرُّوحِيِّ مَعًا ، وَأَشَادُوا بِالْإِلْحَاظِ فِيهِمَا
حَسْبَ الْمَرءِ أَنْ يَصَافِي حَبِيبًا وَاحْدَأً يَحْرُصُ عَلَيْهِ كُلَّ الْعَرَصِ وَيَتَحَمَّلُ فِيهِ الْحُسَادَ وَالْعَدَالَ .
قَدْ تَشَفَّفَ الرَّوَايَاتُ وَالْقَصْصَ الشَّعْبِيَّةُ عَنْ مَطَامِعِ النَّاسِ وَتَصَوُّرِ مَيْوَلِهِمْ وَمَشَاعِرِهِمْ
وَصَبْوَاتِهِمْ . نَطَالَعَ فِي الْلَّيْلَةِ الثَّانِيَّةِ عَشَرَةَ بَعْدَ الْمَائِتَيْنِ فِي رَوَايَةِ أَلْفِ لَيْلَةِ وَلَيْلَةٍ هَذِهِ الْقُطْعَةُ
الْجَمِيلَةُ :

لَيْسَ الْحَسُودُ عَلَى الْهُوَى بِمَسَاعِدِ
مِنْ عَاشِقِينَ عَلَى فَرَاشِ وَاحِدِ
مَتَوَسِّدِينَ بِمَعْصِمٍ وَبِسَاعِدِ
فَاحْرَصَ عَلَيْهِ وَعَشَ بِذَاكِ الْوَاحِدِ

ذُرْ مِنْ تَحْبَّبِ وَدِعْ مَقَالَةَ حَاسِدٍ
لَمْ يَغْلُقْ الرَّحْمَنُ أَحْسَنَ مَنْظَرًا
مَتَعَانِقِينَ عَلَيْهِمَا حَلْلُ الرَّضَا
وَإِذَا صَفَا لَكَ مِنْ زَمَانِكَ وَاحِدٌ

كَمَا نَطَالَعَ فِي الْلَّيْلَةِ نَفْسَهَا هَذِهِ الْمَدَاعِبُ بَيْنِ حَبِيبَيْنِ الْحُبِّيَّةِ وَيَبْحَثُ عَنْهَا حَبِيبَيْها
فِي كُلِّ مَكَانٍ فَلَا يَجِدُهَا . كَانَمَا كَانَا يَلْعَبَانَ وَهُمَا يَتَضَاحَكَانَ فِي مَيْعَةِ الصَّبَا وَتَمَامِ الشَّبابِ:

لَاقِيَتْهُ مِنْ حَاضِرٍ أَوْ بَادِيٍّ
تَرَنِي فَقِلْتَ لَهَا وَأَيْنَ فَوَادِيٍّ
قَالَتْ وَقَدْ فَتَشَتَّتَ عَنْهَا كُلُّ مِنْ
أَنَا فِي فَوَادِكَ فَارِمَ طَرْفَكَ نَحْوَهِ
وَفِي بَحُورِ الشِّعْرِ الْعَرَبِيِّ الْوَاسِعَةِ تَنْوِيَهَ بِالْحُبِّ وَمِبَاهِجِهِ كَمَا فِيهِ تَنْدِيدُ بِشَدَائِدِهِ
وَمَصَاصِبِهِ وَلِعَنَاتِهِ .

مَا جَاءَ فِيهِ تَنْوِيَهًا :

وَلَا خَيْرٌ فِي الدُّنْيَا بِغَيْرِ صَبَابَةٍ
وَأَيْ نَعِيمٍ لَامْرَءٍ غَيْرِ حَبِيبٍ
وَأَيْضاً :

وَمَا طَابَتِ الدُّنْيَا بِغَيْرِ مَجْبَةٍ

وَأَيْ نَعِيمٍ لَامْرَءٍ غَيْرِ عَاشِقٍ

وأيضاً :

وَمَا ذاق طعم العيش من لم يكن له حبيب اليه يطمئن ويسكن
ويخاطب العازب نفسه قائلاً :

اسكن الى سكن تلذ بعجه ذهب الزمان وأنت خال مفرد
إلى غير ذلك مما هو معروف ومتداول يملأ الكتب الأدبية .
أما التنديد بالحب فهو كثير أيضاً :

وَمَا في الأرض أشقى من محب تراه باكيًا في كل حين
مخافة فرقه أو لاشتاق فيكى ان نائ شوقا اليه
ويبيكى ان دنا خوف الفراق فتسخن عينه عند التلاقى
وتتسخن عينه عند التلاقى .
ان أهل العشق أذلاء ، في الدنيا والآخرة :

مساكين أهل العشق حتى قبورهم عليها تراب الذل بين المقابر

ذلك أن العشق عذاب في الدنيا يمنع صاحبه لذة الكوى ، وهو يصرف صاحبه أيضاً عن الأعمال الصالحة :

العشق مشغلة عن كل صالة وسكرة العشق تنفي لذة الوسن

هذا الجانبان المتقابلان المضادان للمحبة والعشق لا يكفي عرضهما دون تدقيق وتفصيل . واللغة العربية بثرائها وغناها واسعتها تعين بالألفاظ التي وضعتها المعاني المحبة على هذا التفصيل والتدقيق . ان تلك الألفاظ العربية التي ليس لها مقابل في اللغات الأجنبية قريبة جداً من التعليل النفسي الذي نجده في علم النفس الحديث . بل ان هذا العلم اذا تقدم في مختلف ميادينه يحتاج أن يقتبس من اللغة العربية مختلف مفرداتها الدقيقة التي سبقت الى وضعها .

نلاحظ قبل كل شيء أن لفظ الحب مؤلف من حرفين العاء ومخرجته أقصى الحلق والباء ومخرجته بين الشفتين . ولما كانت أسماء الأشياء كلها تخرج بين الحلق والشفتين لف الحب جميع الكائنات عند الدلالة عليها باللفظ وأتى عليها . ومن المناسب دائماً في اللغة العربية أن ننتبه إلى مخارج العروف ودللات ترتيبها فان ذلك من أسرار هذه اللغة العظيمة .

لنتأمل الآن دون مغalaة بعض معاني تلك الألفاظ التي تدخل تحت لواء الحب ولنعتمد على كتاب روضة المحبين وما جاء فيه في بيان اشتقاق تلك الأسماء فنحن مدینون لمؤلفه الشيخ الفقيه في هذا البيان والإيضاح . ولكن مثل ذلك ورد في « ديوان الصباية » أيضاً . قالوا في المحبة التي هي أم هذه الأسماء انها مليل الدائم بالقلب الهائم وايثار المحبوب على

جميع المصحوب ، وموافقة العبيب في المشهد والمغيب . وقيل أن تهَبَ كلَكَ لِمَنْ أَحْبَبْتَه
فلا يبقى منك شيء . وقيل هي نار تحرق من القلب ما سوى مراد العبوب، وقيل ذكر المحبوب
على عدد الأنفاس وقيل عمى القلب عن رؤية غير المحبوب وصممه عن سماع العدل
فيه . وفي الحديث حبك الشيء يعني ويضم . وقيل ميلك إلى المحبوب بكلistik وايثارك له
على نفسك وروحك ومالك ثم موافقتك له سراً وجهاً ثم علمك بتقصيرك في حبه .

واللود خالص الحب وألطافه وأرقه وهو من الحب بمنزلة الرأفة من الرحمة .
والغلة توحيد المحبة . فالخليل هو الذي توحد حبه لمحبوبه وهي رتبة لا تقبل المشاركة .
والغلام مأخوذ من المخالمة وهي المصادقة واللومة والغلام الصديق .
والرئيس الشيء الثابت فرسيس الحب ثباته ودوانه .

قال ذو الرمة :

اذا غير النائي المحبين لم يكدر رسيس الهوى من حب مية ييرح

وأما الهوى فهو ميل النفس إلى الشيء وقال اللغويون هو يهوى هوى كعمي يعمى
عمي وأما هوى بالفتح فهو السقوط ومصدره الهُوي بالضم وقد يطلق الهوى على
الحبيب فيقال هذا هوى فلان وفلانة هواه أي مهويته وحبيبته .

وأما الصباية فهي رقة الشوق وحرارته . يقال رجل صب أي عاشق مشتاق :

تشكى المحبون الصباية ليتنى تحملت ما يلقون من بينهم وحدى
وأما الشغف فمعناه بلوغ الحب شفاف القلب وهو جلد دونه كالعجباب .
والشغف مثله أو هو احرق القلب والامراض .

وأما الوجد فهو الحب الذي يتبعه الحزن وهو يطلق على محبة معها فقد " ، فقد"
يوجب الحزن .

وأما الكلف فأصله من الكلفة التي هي المشقة ومنه تكلفت الأمر تجسّمته .
وأما التتيم فهو التعبد من قولهم تيئمُه الحب اذا عبده وذله فهو متيم .

وأما العشق فهو أمر " هذه الأسماء وأختها كما يقول ابن قيم الجوزية . قيل هو مأخوذ
من شجرة يقال لها عشقة تخضر ثم تدق ثم تصفر وهي تتعلق بما يليها من أشجار والعاشق
اسم الفاعل والمشوق اسم المفعول وكلها عشيق يطلق اللفظ على العاشق والمشوق .

واختلف الناس هل يطلق هذا الاسم في حق الله تعالى ؟ فقالت طائفة من الصوفية
لا بأس باطلاقه . وقال جمهور الناس لا يطلق ذلك في حقه سبحانه وذكرها سبب المنع على
ثلاثة أقوال أحد ها عدم التوثيق بخلاف المحبة . الثاني أن العشق افراط المحبة ولا يمكن ذلك
في حق الله فان الله لا يوصف بالافراط في الشيء ولا يبلغ عبده ما يستحقه من حبه
فضلاً أن يقال أفرط في حبه . الثالث أنه مأخوذ من التغير كما يقال للشجرة المذكورة
عشقة .

وأما الجوى فهو الحرقه وشدة الوجد من عشق أو حزن .

وأما الدفف فهو المرض الملائم وقد دفف المريض بالكسر وأدفف اذا ثقل وأدففه المرض يتعدى ولا يتعدى فهو مدئن و مدئن . وكأنهم استعاروا هذا الاسم للحب اللازم تشبيهاً له به . ويقال رجل دنف بفتح النون وامرأة دتف وقوم دتف يستوي فيه المذكر والمؤنث والتثنية والجمع . فان قلت رجل دنف بكسر النون قلت امرأة دنفة أشت وثنت وجمعت .

واما الشجو فهو حب يتبعه هم وحزن .

والشجى ما ينشب في العلق من عظم أو غيره ، ورجل شج أى حزين وامرأة شجية على وزن فَعِلَة . فأطلق هذا الاسم على العب لـ لـ لـ كـ الشـ جـى الذي يـ عـ لـقـ بـ الـ عـ لـقـ وـ يـ نـ شـ بـ فـ يـ هـ .

واما الشوق فهو سفر القلب الى المحبوب . وهو من أسماء الحب . قال في الصلاح : الشوق والاشتياق نزاع النفس الى الشيء . يقال شاقني الشيء يشوقني فهو شائق وأنا مشوق وشوقني فتشوّقت اذا هيج شوقك وجاء لفظ شيق بمعنى مشتاق لا بمعنى شائق .

قال الشريف الرضي :

وما تلوّم جسمي عن لقائكم الا وقلبي اليكم شيق عجل

واختلف في الفرق بين الشوق والاشتياق أيهما أقوى فقالوا الشوق أقوى فانه صفة لازمة والاشتياق فيه نوع افتعمال كما يدل عليه بناؤه كالاكتساب ونحوه . وقالت فرقة الاشتياق أقوى لكثرة حروفه . وكل زيادة في المبنى زيادة في المعنى . وقالت جماعة الاشتياق يكون الى غائب وأما الشوق فانه يكون للحاضر والغائب .

واختلف أرباب الشوق هل يزول الشوق بالوصال أو يزيد ؟ فقالت طائفة : يزول فان الشوق سفر القلب الى المحبوب فإذا وصل انتهت السفر . قالوا : ولأن الشوق انما يكون لغائب فلا معنى له مع الحضور . ولهذا انما يقال للنائب : أنا اليك مشتاق . وأما من لم يزل حاضراً مع المحب فلا يوصف بالشوق اليه . وقالت طائفة : بل يزيد بالقرب واللقاء واستدلوا بقول الشاعر :

واعظم ما يكون الشوق يوما اذا دنت الغيام

قالوا : ولأن الشوق هو حرقة المحبة والتهاب نارها في قلب المحب وذلك مما يزيد به القرب والمواصلة . والصواب في رأي ابن قيم الجوزية أن الشوق العادث عند اللقاء والمواصلة غير النوع الذي عند الغيبة عن المحب . قال ابن الرومي :

**اليها وهل بعد العناق تدانى
فيشتدى ما ألقى من الهيمان
ليشفى ما ترشف الشفتان
سوى أن يرى الروحان يمتزجان**

**أعانقها والنفس بعد مشوقة
وأثم فاها كي تزول حراري
ولم يك مقدار الذي بي من الهوى
كان قوادي ليس يشفى غليله**

شعر ابن الرومي يجذب الى وحدة العبيدين وقد عبر عنها شاعر آخر مجهول ببيتين تمثل بهما العلاج :

أنا من أهوى ومن أهوى أنا نحن روحان حللنا بدننا
فإذا أبصرتني أبصرته وإذا أبصرته أبصرتنا

ولكن هل يستمر الحب في هذا الاتحاد الذي يقع في ذروة الوصال الناجح لو حصل؟
فيهات ! ذلك أن توهج الشعور المتعدد المحتدم لا يدوم إلا لمرة بارقة ثم ينفصم العبيدان في
الحب الإنساني ويعود القلق والسعى مرة ثانية وسؤال المحب نفسه عن مشاعر المحبوب
بعد أن تملكه فينة من الوقت . وقد قال العرب في هذا المعنى : « اذا صاح الظفر وفتحت
الغيرة » . ذلك أن المحبوب انسان له وجود متميز وهو ذو حرية . النزوع الى تملك هذه
الحرية مشكلة كبيرة . لو تم لأصبح العبيب شيئاً مادياً وغداً المحب عطفاً أو ازدراء فتغير
معناه وخرج عن نطاق المحبة .

ان في الشوق والحب خدعة . كلما اقترب المحب من حبيبه نأى العبيب على رغم
الوصل وابتعد بهذه الحرية . وقد أطلق العرب على هذا النوع من الحب لفظ **الخلابة** .
وهو الحب الذي وصل الى الخلب وهو العجب بين القلب والعشا . ولكن الخلابة أيضاً معناها
الخداع لأن الحب يخدع أباباً وأرباباً . وفي المثل « اذا لم تغلب فاخلب » ، أي اذا أعياك
الأمر مغالبة فاطلب مخادعة . والخلابة الخداع والخلاب الخداع الكذاب . ومنه البرق الخلاب
الذي لا غيش فيه كأنه خادع . والخلاب أيضاً السحاب الذي لا مطر فيه . ويعلق ابن قيم
على هذا اللفظ فيقول : والحب أحق ما يسمى بهذا الاسم لأنه يعمي ويصم ويخدع لب المحب
وقلبه .

خداع الحب هذا هو الذي يولد الوساوس والهم والغم . ولذلك نسب العرب الى
الحب بلا بل فقلوا بلا بل الحب وبلا بل الشوق وهي الهم ووسواس الصدر وليس ذلك بسهل .
انما هو العذاب اللازم . ولذلك سموا ما يلقاه المحب أيضاً تباريحاً الشوق وتباريحاً للحب
وتباريحاً الجوى وهي الشدائيد والدواهي .

وقد يشعر المحب بالنديم يساور نفسه وبالحزن تعجب سعادته صفاء بصيرته . وهذا
هو السدم فهو الحب الذي يتبعه ندم وحزن أو يشعر المحب كأنه في لج من الاضطراب
والغفلة فهذه غمرات الحب التي تشبه غمرات الموت أي شدائده .

وكثيراً ما يتغير لون المحب اذا رأى محبوه فجأة فيرتاع ويصفر لونه ويبيهت .

وما هو الا أن أراها فجأة فأبيهت حتى لا أكاد أجيء

وهذا هو الوهل وأصله الفزع والروع يقال وهل يوهل وهو وهل " ومستوهل " .

والشجن من أسماء الحب لأن الشجن الحاجة حيث كانت وحاجة المحب أشد شيء الى

محبوبه .

قال الراجز :

أني سأبدي لك فيما أبدي لي شجنان شجن بنجد
وشجن لي ببلاد السند

وقد من قيام الحب على العوز وعلى الحاجة . ولكن للشجن معنى آخر وهو الحزن .
والحب فيه الأمران الأمران فيه الحاجة وفيه الحزن جمعياً .

وغالباً ما يساور المحب الألم ويلسع فؤاده . وهذا هو اللاعج . ويقال هو لاعج
لحقة الفؤاد من الحب .
والألم قد يجتمع معه المرض وهذا هو الوصب .

وأما الكمد واللذع والعرق والسهد والأرق واللهف والحنين والاستكاثة واللوعة
والفتون والغبل فهي جميعاً من أحكام الحب وأثاره .

وأما الداء المخامر فهو من أوصافه وسمى مخامرًا لخالطته القلب والروح .
وأما الغرام فهو الحب اللازم ومنه قوله لهم رجل مغرم من النرم أو الدين والغرام أيضًا
الشر الدائم والعداب ومنه قوله تعالى : « ان عذابها كان غراماً » .

والهياق أشد العطش وهو أيضاً كالجنون من العشق يقال هام على وجهه هيماً وهيماً .
والتدليه ذهاب العقل من الهوى يقال دله العب أي حيره .
والوله ذهاب العقل والتغير من شدة الوجد ورجل والله وامرأة والله ووالله .
والبعد غاية الحب وغاية الذل يقال عبه العب أي ذلله وطريق معبد بالأقدام
أي مذلل .

وآخر أنواع الحب الجنون . وأصل المادة من الستر في جميع تصارييفها . ومنه
أجنـهـ اللـيـلـ وـجـنـ عليهـ اـذـاسـتـرهـ وـمـنـهـ الجـنـينـ لـاستـتـارـهـ فيـ بـطـنـ أـمـهـ وـمـنـهـ الجـنـةـ لـاستـتـارـهـ بـالـأشـجـارـ
وـمـنـهـ الجـنـ لـاستـتـارـ الضـارـبـ بـهـ وـالـضـرـوبـ وـمـنـهـ الجـنـ لـاستـتـارـهـمـ عنـ العـيـونـ بـخـلـافـ الـأـنـسـ .
فـاـنـهـمـ يـؤـنـسـونـ أـيـ يـرـونـ وـمـنـهـ الجـنـةـ بـالـضـمـ وـهـيـ مـاـ استـتـرـتـ بـهـ وـاتـقـيـتـ . وـأـجـنـتـ الـمـيـتـ
وـأـرـيـتـهـ فيـ الـقـبـرـ فـهـوـ جـنـينـ . وـالـحـبـ المـفـرـطـ يـسـتـرـ الـعـقـلـ فـلـاـ يـعـقـلـ المـحـبـ مـاـ يـنـفـعـهـ وـيـضـرـهـ
فـهـوـ شـعـبـةـ مـنـ الـجـنـونـ .

على أن بعض الشعرا يرى الجنون أخف من العشق .

قالت جنت بمن تهوى فقلت لها العشق أعظم مما بالجانين
العشق لا يستفيق الدهر صاحبه وإنما يصرع الجنون في العين
□ مجنون ليلي رمز العشاقة :

ان كل عاشق قد أصابه طرف من اللهم أو مس من الجنون . ولكن قيس بن الملوح
هو الذي عرف بالجنون وهو رمز الحب المفرط في تاريخ الحب . ولسنا نريد الآن أن نشك

ولا أن ثبتت ولا أن ندعى العلم الواسع والنهج العلمي كما فعل طه حسين في حديث الأربعاء
فإن كل ما صنع هذا الأديب الناقد واضح بيّن بين أخبار المجنون في كتاب الأغاني ، وإنما
نتخذ قيساً هذا الذي لانشك في أنه يمثل طائفة العشاق . فهناك ألف المشاق المجنونين
من أشهرهم قيس بن الملوح وقيس بن ذريح وعروة بن حرام وغيرهم . ونظن أن
الذين لم تسجل أسماءهم كتب الأدب أكثر من هؤلاء العشاق .

ذكر الأصمعي (١١) أنه سأله اعرابياً منبني عامر عن المجنون العامري فقال : عن
أيهم تسأل فقد كان فيما جماعة رموا بالجنون فمن أهالي الجنون كان يشبب
بليلى فقال كلهم كان يشبب بليلي . ثم يستنشد الأصمعي الاعرابي شعراً لبعضهم
فيتشده بعض القطع الشعرية الجميلة ثم يختتم انشاده فيخاطب الأصمعي قائلاً حسبك
فواهـةـ انـ فيـ واحدـ منـ هـؤـلـاءـ مـنـ يـوـزـنـ بـعـلـائـكـ الـيـوـمـ .

هذا معناه أن العقل في الحب هو الجنون نفسه .

قال الباحظ : ما ترك الناس شعراً مجهول القائل قيل في ليلي لا نسبوه إلى المجنون ولا
شعرأً هذه سبيله قيل في لبني لا نسبوه إلى قيس بن ذريح .

نعن يهمنا اذن هذا الرمز الأدبي العاطفي في قيس بن الملوح . لقد نشا مع ليلي
وهي صغيرة ذات ذئابة يرعى الماشية ويلعبان :

تعلقت ليلي وهي ذات ذئابة
و لم يبد للاتراب من ثديها حجم
صغيرين نرعاى البهم يا ليت أنا
إلى الآن لم تكبر ولم تكبر البهم

العمل الفني سواء أكان شعراً أم رسماً أو موسيقى إذا أنجز خرج عن سيطرة الزمان
ولكن الإنسان قد يشعر ابانه بلحظة عميقة ينفذ فيها إلى أعماق الوجود وما فيه من ألفة
ومحبة كما شعر ذلك الراعني الصغير إذ بقيت تلك الذكرى ماثلة في نفسه أو ينفذ إلى أعماق
الوجود وما فيه من قرف وتقرز ونفور كما شعر فيلسوف الوجودية سارتر . ولكن الإنسان
كان من كان لا يلبث أن يرتد إلى حياته العاديـةـ التي هو مضطـرـ أنـ يـلـبـيـ حاجـاتـهاـ وهوـ مـالـكـ
لرادـتهـ ووعـيهـ .

قد يقع بين الأحياء والقبائل والأسرنزـاعـ أو عداء كما وقع بين أهل روميو وجولييت
على رأي شكسبير وكما وقع بين شيمين ورودرـيكـ على رأي كورني وكمـ جـاءـ التـلمـيـحـ إلىـ
ذلكـ فيـ شـعـرـ المـجـنـونـ ولـكـ الحـبـ يـزـدـرـيـ ذلكـ كـلـهـ ويـتـرـفـعـ عـنـهـ يـقـولـ المـجـنـونـ :

وقد لامني في حب ليلي أقاربـيـ
 أخي وابن عمـيـ وابن خالي وحالـياـ
يقولون ليلي أهل بـيـتـ عـداـوةـ
بنفسـيـ لـيلـيـ منـ عـدوـ وـمـالـيـاـ

فهو يفدي ليلي بمالـهـ ونفسـهـ . ذلكـ أنـ الحـبـ يـقـويـ الحـبـ وـيـدـعـهـ . ولوـ شـعـرـ قـيسـ
بأنـهـ عـزـوفـ منـ لـيلـيـ عنـهـ لـانـصـرـفـ عنـهـ عـلـىـ الرـغـمـ مـنـ الحـبـ العـارـفـ . انهـ مـطـمـئـنـ إـلـىـ
حيـاهـ لـهـ :

ولو كان في ليلي شدأ من خصومة للويت أعناق المطبي الملاوي

أراد قيس ذات يوم أن يزور ليلي فركب ناقته وسار بها وهو مشغول البال . ولكن الناقة كان لها فضيل تعجبه وتعن اليه فما ان شعرت بضعف القيادة حتى ثنت عنانها آية الى رضيعها ، ثم أدرك قيس أنها راجعة فردها الى مقصده ولكن قيساً استغرق في تفكيره فرجعت الناقة الى طريق عطنها مرة ثانية فردها أيضاً الى غايتها وهكذا فعل قيس وفعلت الناقة أربع مرات . وعندئذ نزل عنها وخلها ترجع الى فضيلها وسلك هو وحده الطريق الى ديار الحبيب وغنى ذلك في شعره :

وانـي واـيـاهـا لـمـخـلـفـانـ
وـشـوقـ قـلوـصـيـ فـيـ الغـدوـ يـمـانـيـ
لـبـرقـ اـذـاـ لـاحـ النـجـومـ يـمـانـيـ
وـمـالـكـ بـالـعـبـءـ التـقـيـلـ يـدانـ

هـوـىـ نـاقـتـيـ خـلـفـيـ وـقـدـامـيـ الهـوـىـ
هـوـايـ أـمـامـيـ لـيـسـ خـلـفـيـ مـعـرـجـ
هـوـايـ عـرـاقـيـ وـتـشـنـيـ زـمـامـهـاـ
مـتـىـ تـجـمـعـيـ شـوـقـيـ وـشـوقـكـ تـقـلـعـيـ

هذا الشعر لعروة بن حزام من قصيدة طويلة له ولكن الشاعر الفارسي عبد الرحمن جامي في كتابه ليلي والجنون ينسب القصة الى الجنون .

ليلي الأثنى تلعب بالنار . فقد زارها قيس فأكرمت زيارته وحادثه ولكنها أرادت أن تعلم هل لها عنده مثل ما له عندها فجعلت تعرض عن حديثه ساعة بعد ساعة وتحددت غيره ونظرت الى وجه الجنون قد تغير وامتصق وشق عليه ما فعلت فأنشأت تقول :

كـلـاـنـاـ مـظـهـرـ لـلـنـاسـ بـغـضـاـ
وـكـلـ عـنـدـ صـاحـبـهـ مـكـيـنـ

تـبـلـغـنـاـ عـيـونـ مـقـاتـلـيـنـ

فلما سمع هذين البيتين شهد شهقة عظيمة وأغمي عليه فمكث كذلك ساعة ونضحو الماء على وجهه حتى أفاق وتمكن حب كل واحد منها في قلب صاحبه وبلغ منه كل مبلغ ثم انصرفت عنه وهو من أشد الناس سروراً وأقرهم عيناً .

جاء قيس منزل ليلي يطلب قيساً من نار وهو متلفع ببرد له من البرد فأخراجت ليلي له ناراً في عطبـةـ فأعطـتـهـ اـيـاهـاـ وـوـقـفـاـيـتـحـدـثـانـ فـلـمـاـ اـحـتـرـقـتـ العـطـبـةـ أـخـذـ خـرـقـةـ منـ بـرـدـ وـجـعـلـ النـارـ فـيـهاـ فـكـلـمـاـ اـحـتـرـقـتـ خـرـقـأـخـرىـ وـأـذـكـىـ بـهاـ النـارـ ثـمـ اـنـسـابـتـ النـارـ إـلـىـ رـاحـتـيـهـ دونـ أـنـ يـشـعـرـ .ـ وـقـدـ لـخـصـ شـوـقـيـ ذـلـكـ الحديثـ :

رـبـ فـجـرـ سـأـلـتـهـ هـلـ تـنـفـسـتـ فـيـ السـحـرـ
وـرـيـاحـ حـسـبـتـهـ جـرـرـتـ ذـيـلـكـ الـعـطـرـ

ولكن ليلي تخـشـىـ عـلـيـهـ خـطـرـ النـارـ فـتـقـاطـعـهـ :

وـيـحـ قـيـسـ تـحـرـقـتـ رـاحـتـاهـ وـمـاـ شـعـرـ

هـذـاـ عـبـ يـصـابـ بـلـعـنـةـ وـأـيـ لـعـنـةـ .ـ فـقـدـلـفـاـ النـاسـ فـيـ حـبـهـاـ وـأـرـجـفـواـ الأـرـاجـيفـ
وـذـكـرـواـ لـقـاءـهـاـ لـيـلـةـ الـغـيلـ اـذـ يـقـولـ قـيـسـ :

**أبٍت ليلة بالغيل يا أم مالك لكم غير حب صادق ليس يكتب
وقد كرهت ليلي هذا البيت خشية الأقاويل .**

ولما أتى قيس بن ذريح ليلي شفيعاً لسميه ابن الملوح ومثيله في جنون العشق قال لها : ان الناس تأولوا كلامه على غير ما أراد فلأتكوني مثلهم . انما أخبر أنه رأك ليلة الغيل فذهبت بقلبه لا أنه عنك بسوء فأطريقت طويلاً ودموعها تجري وهي تفكفها ثم انتعبت وقالت لابن ذريح : قل له بنفسه أنت والله ان وجدتني لك لفوق ما تجده ولكن لا حيلة لي فيك .

ومع ذلك فقد حجبت ليلي وأهدر الوالي دم قيس ان تعرض لها ثم أكرهت على الزواج من غيره . ولما أراد زوج ليلي الرحيل بها إلى بلده بلغ الجنون أنه غاد بها فقال يخاطب نفسه :

**أمزمعة للبين ليلي ولم تمت
ستعلم ان شطت بهم غربة النوى
كأنك عما قد أظلك غافل
وزالوا بليلي أن لك زائل
قيل ان قيساً سقم شديداً قبل اختلاطه حتى أشفى على الهملاك . فدخل إليه أبوه
يعمله فوجده ينشد هذه الأبيات ويبكي أحقر بكاء وينشج أمر نشيج :**

**بليلي وليداً لم تقطع تمائمه
لحالك أن تلقى طيباً تلائمه
ترى نائي ليلي مغرماً أنت غارمه
تلعك لا تنسيك ليلي ملمة
أجلك لا تنسيك عهداً تقادمه**

قيل : ووقف مستتراً ينظر إلى أظمان ليلي وقد رحل بها زوجها وقومها . فلما رأهم يرتحلون بكى وجزع فقال له أبوه : ويحك إنما جئنا بك متخفياً ليتروح بعض ما بك بالنظر إليهم فإذا فعلت ما أرى عُرفت وقد أهدرت السلطان دمك ان مررت بهم فامسك أو انصرف . فقال ما لي سبيل إلى النظر إليهم يرتحلون وأنا ساكن غير جائع ولا بأك فانصرف بنا . فانصرف وهو يقول :

**ذُدِ الدمع حتى يطعن العي إنما
دموع العين يوم تحملوا
كان دموع العين يوم تحملوا
وتتصبغ الدنيا كلها ضيقه عليه كأنها حلقة خاتم ويشعر بفؤاده تتخطفه مخالب
الطير :**

**إذا ذكرت ليلي يشد بها قبضا
على فما تزداد طولاً ولا عرضا
كان فوادي في مغالب طائر
كان فجاج الأرض حلقة خاتم
وهو يتعرق بنار الفراق بعد أنس القرب :**

**وأذنيتني حتى اذا ما سبيتنـي
تناءيت عني حين لا لي حيلـة**

ومع ذلك فلتفعل ليلي ما بدا لها أو ما أكرهت عليه فليس بمتغير لها ولا تائب عن
جبها ولو نصحته الناصحون :

فاني وان لم تجزني غير عاتب^(١٢) عفا الله عن ليلي وان سفكت دمي
وقد يشتكي المشكى الى كل صاحب عليها ولا مجد لليلى شكاية
وما خلتنى عن حب ليلى وذكرها يقولون تب عن حب ليلى وذكرها

قيل من المجنون بزوج ليلي وهو جالس يصطلي في يوم شات وقد أتى ابن عم له في
حي المجنون لحاجة فوق عليه ثم أنشأ يقول :

بربك هل ضممت اليك ليلي قبيل الصبح او قبلت فاهما
وهل رفت عليك قرون ليلي ريف الاقعوانة في نداها

قال اللهم اذ حلقتني فنعم . . قيل : فقبض المجنون بكلتا يديه قبضتين من الجمر
فما فارقهما حتى سقط مغشياً عليه وسقط الجمر مع لحم راحتيه ، وعض على شفته
قطعها . . فقام زوج ليلي مغموماً بفعله متعجبأ منه فمضى .

ان الجنون وقطع الشفة ليس مقصوراً على قيس بن الملوح ولا على الشعرااء .
وينبني الا نستغرب ذلك . . فمن المعلوم أن الرسام الهولندي الشهير فان خوخ قطع اذنه
وقدمها الى صديقه ثم رسم نفسه مضمداً وجهه والأذن . . والجنون فنون .

يذكر رواة الأدب أحوال المجنون وهيامه في البراري ولكنهم يغفلون نفسية ليلي التي
بقيت تعب قيساً بعد زواجها . . كيف كانت حياتها مع زوجها وهل كانت عند الوصال
تفكير في هذا الزوج أو تغمض عينيها لتتذكر في ابن عمها . . كل ما نقرؤه أنها كانت دائمة
الذكر له على الرغم من غناها . . ذكرروا أن رجلاً خرج إلى ناحية الشام وما يلي تيماء
والسراة وأرض نجد في طلب بغية فإذا هو بخيمة قد رفعت له وقد أصابه المطر فعدل إليها
وتنحنح فإذا امرأة قد كلمته فقالت : انزل . . فنزل . . ويحدثنا الرجل فيقول : وراحوا بهم
وغنمهم فإذا أمر عظيم فقالت : سلوا الرجل من أين أقبل ؟ قلت من ناحية تهامة ونجد .
فقالت : ادخل أيها الرجل . . فدخلت إلى ناحية من الغيمة . . فأرخت بيبي وبيتها ستراً ثم
قالت : يا عبدالله أي بلاد نجد وطئت ؟ فقلت : كلها . . قالت : فبمن نزلت هناك ؟ قلت : ببني
عامر . . فتنفست الصعداء ثم قالت : فأباي ببني عامر نزلت ؟ فقلت : ببني العريش .
فاستعيerty ثم قالت : فهل سمعت بذكر فتى منهم يقال له قيس بن الملوح ويلقب بالمجنون ؟
قلت : بلى والله ، وعلى أبيه نزلت وأتيته فنظرت إليه يهيم في تلك الفيافي ويكون مع
الوحش لا يعقل ولا يفهم إلا أن تذكر له امرأة يقال لها : ليلي فيبكي وينشد أشعاراً
قالها فيها . . قال :

فرفعت الستر بيبي وبيتها فإذا فلقة قمر لم تر عيني مثلها . . فبكت حتى ظننت والله أن
قلبه قد انصدع فقلت : أيها المرأة اتقى الله فما قلت بأساً . . فمكثت طويلاً على تلك الحال
من البكاء والنعييب ثم قالت :

**ألا ليت شعري والخطوب كثيرة متى رحل قيس مستقل فراجع
بنفسي من لا يستقل برحله ومن هو ان لم يحفظ الله ضائع**

ثم بكت حتى سقطت مغشياً عليها فقلت: من أنت يا أمة الله وما قصتك قالت : أنا ليلي
صاحبة المشؤومة والله عليه غير المؤنسة له . فما رأيت مثل حزنها ووجدها عليه قط .

لقد ملك زوج ليلي جسمها ولكنها لم يملك روحها .
أما قيس فما زال يتخبط في الفيافي والأودية والنجدود اذا رأى طبية مصيدة فداها
بغنة أو قلوص لشبهها بليلي .

انه يعرف قيمة السياحة وقيمة الشعر في تخفيف تبارييع وجده قبل أن ينوه بوظيفة
الفن فلاسفة الفن .

**فما أشرف الايقاع الا صبابة ولا أشد الأشعار الا تداويا
ومع ذلك فقد بقي في نفسه خيط من الأمل على الرغم من اليأس القاتل :
وقد يجمع الله الشتتين بعلما يظنان كل الظن الا تلاقيا**

ولكنه يختلط عليه عقله . أول الاختلاط أنه أضاع حس الزمن والعد :

أصلئي فما أدرى إذا ما ذكرتها أثنتين صليت الضحى أم ثمانية

ثم يفقد حس التوجة :

أراني إذا صليت يممت نحوها بوجهي وان كان المصلى ورائيَا

وما بي اشراك ولكن جبها كعود الشجا أعيَا الطبيب المداويا

ثم يفقد حس المكان :

روى صاحب «الشكول» أن المجنون مر على منازل ليلي بنجد فأخذ يقبّل الأحجار ويضع جبهته على الآثار فلاموه على ذلك فحلف انه لا يقبل في ذلك الا وجهها ولا ينظر إلا جمالها . ثم رؤي بعد ذلك في غير نجد وهو يقبل الآثار ويستلم الأحجار فليم على ذلك وقيل له : انها ليست من منازلها فأنشد:

لا تقل دارها بشقي نجد كل نجد للعامريّة دار
فلهما منزل على كل أرض وعلى كل دمنة آثار

وسواء أصحت هذه الرواية عن الجنون أم لم تصح فهي تمثل حالة نفسية في شدة العشق والهياق أبعراً تمثيل .

□ العب الصوفي :

ان نكبة الجنون هنا تبدو ذات مغزى فلسفياً أو صوفياً وهو أن الحب يحمل في نفسه غايتها . فالمرء يحب للحب نفسه ويتجاوز صفة التعلق بمحبوب مسمى إلى حب الحب إلى حب الوجود والتكمال وإن خامر هذا الحب الهلاك والردى .

وعندنا أن الصوفية انتبهوا لقصة الجنون هذه وأفادوا منها في حبهم الصوفي الذي يشمل الكائنات ولكنه يتتجاوزها . لشرح بعض الشيء ما جنحوا إليه ولنفرض مثلاً أن مستهاماً بالقطع الموسيقية أحباً سinfonia مشهورة وسعى فحصل بسهولة على تسجيلها ثم أحباً ثانية وثالثة وهلم جرا وحصل على تسجيلاتهما جميعاً فهو في نهاية الأمر قد حصل على قطع موسيقية جميلة مسجلة ولم يحصل على سر الأبداع وجواهر الألهام في التأليف الموسيقي . وكذلك شأن الحب فهو يسعى نحو حبيب أو أحباء ولكنه لا يملك سر الجمال ولا أكسير الحب إنما يبيّن متجاوزين للظواهر إنما في القلب الإنساني .

وهكذا يعي الصوفي أو الفيلسوف في قصة الجنون غير ما يعيه الأديب محقق الأخبار وممحصها أو الزميّت الذي يرى في القصة الأخيرة إشارة إلى وحدة الوجود وليس الأمر كذلك وإنما المراد في هذا الحديث وحدة الشهود .

وأياً كانت الفحوى لحب قيس فانا لانستغرب كيف ارتکز فريق من الصوفية على أخبار الجنون ليصوغوا منها آثاراً فنية رائعة وخلدة مثل نظامي كنجوي (ليلي وجنون) وأمير خسرو دهلوى (جنون وليلي) وعبد الرحمن جامي (ليلي والجنون مترجم إلى العربية) . وعبدي بييك شيرازي (جنون وليلي) فالعشق منقبة من مناقب الإنسان عندهم وخاصة من خصائصه . ولكن يستلزم العفة والطهر ويقرب من الله حين يعتمد على القلب بعد اعتماده على العقل ، اذ المقل يدرك الحقائق في مدى واسع هو مدى الظواهر والعلوم ولكنه يفسح بعد ذلك في المجالات والأفاق لواهب القلب وطاقات البصيرة .

وعدا الصوفية فقد عالج شوقي أخبار الجنون في مسرحيته المشهورة كما وصلت تلك الأخبار حتى إلى الشاعر الفرنسي الحديث أراغون فسمى أحد دواوينه في زوجته «جنون السا» تشبيهاً لنفسه بقيس بن الملوح . وشتان ما بين الجنوين .

وهكذا انقلب لعنة الحب لدى الجنون إلى نعمة رغبة التشبه به في الحب ولو مجازاً وإلى نعمة العرفان بالله عند الصوفية الذين هم أشد اندفاعاً وأكثر اصطلاحاً في الحب .

لقد بدأنا كتابة هذا الحديث ونحن راغبون في عرض آراء الصوفية عن الحب وفي الموازنة بين مأساة الجنون ومساوة الحال التي انتهت إلى الصليب والقتل ضمن مؤامرة ظالمة ولكن فات وقت الموازنة . ومع ذلك فقد يفيض في الخاتمة أن أشير إلى بعض أقوال أبي المفتي(١٣) الحسين بن منصور :

لو ألقى مما في قلبي ذرة على جبال الأرض لذابت ، واني لو كنت يوم القيمة في النار لأحرقت النار ، ولو دخلت الجنة لأنهم بنيانها .

عجبت لكتبي كيف يحمله بعضى
ومن نقل بعضى ليس تحملنى أرضى
فقلبى على بسط من الأرض موضع
لئن كان في بسط من الأرض موضع
وهو يمر في سوق بغداد ويصبح :

يا أهل الاسلام أغثثوني فليس يتركني ونفسى فأنس بها ، وليس يأخذنى من نفسى
فاستريح منها وهذا دلال لا أطيقه ثم ينشد :

حويت بكلى كل كلك يا قدسى
أقلب قلبى في سواك فلا أرى
فها أنا في حبس الحياة منع
تكاشفنى حتى كأنك في نفسى
سوى وحشتي منه وأنت به انسى
عن الانس فاقبضنى اليك من العبس

ولما قدم الى الصليب فهل يجزع ؟ هل يشتتم جلاديه ؟ هيهات ! انه يباركهم فيقول في
جملة دعائه :

هؤلاء عبادك اجتمعوا لقتلي تعصباً لدينك وتقرباً اليك فاغفر لهم . فانك لو
كشفت لهم ما كشفت لي لما فعلوا ما فعلوا . ولو سترت عنى ما سرت عنهم لما
ابتليت بما ابتليت . فلك الحمد فيما تفعل، ولك المجد فيما تريد . ثم سكت وناجي سرأ .
ويقول الراوى ابراهيم بن فاتك : فتقىدم أبو العارث السياف فلطمه لطمة هشم أنفه
وسال الدم على شيبه . فصاح الشبلي ومزق ثوبه ، وغشى على أبي الحسين الواسطي وعلى
جماعة من القراء المشهورين وكادت الفتنة تهيج ففعل العرس ما فعلوا .

او ليس السهوردي مقتول حلب يصور أحوال الصوفية في قصيدته المشهورة التي منها:

وكذا دماء العاشقين تباح
بالسر ان باحوا تباح دمائهم
بحرب وشدة شوّقهم ملاح
ركبوا على سفن الوفا ودموعهم
حتى دعوا وأتاهم المفتاح
واله ما طلبوا الوقوف ببابه
فتحتوكوا لما رأوه وصاحوا
حضرموا وقد غابت شهود ذواتهم

ويختتم قصيدته بالبيت المشهور :

وتشبهوا ان لم تكونوا مثلهم ان التشبه بالكرام فلا
واها لهم ! انهم مجانين ! انهم مجازيب ! شأنهم شأن مجازيب القيم الرفيعة ومجانين العلو
الذاتي وعشاق المجد المؤثل وأحباب الخلود الانساني .

□ الانسان قطب المحبة :

والخلاصة أن المحبة في التراث العربي الإسلامي قطبها الانسان سواء كان محباً للانسان أو كان محبوباً من أخيه الانسان سواء كان حبه الله أو كان العبان مشتبكين فلا بد من أن يلم به ذلك الحب وأن يغمره بنوره المتألق المتعدد الألوان . على أن غمرة النور هذه تؤدي إلى النشوة والعنفوان أو إلى التبرير والاصطalam هذا لولا النزعات الbagia العدوانية في الميدان السياسي كالنازية والصهيونية . وربما كان الشاعر الكبير محمد اقبال عنى مكانة الحب في التراثيين قال:(١٥)

لم ألق في هذا الوجود سعادة
كمودة الانسان للانسان
ما سكرت بعمرها القدسي لم
أحتج الى تلك التي في الحان

عبدالكريم اليافي

* * *

□ الحواشي :

- ١ - البقرة (٢) - ٢٧٣
- ٢ - القمر (٥٤) - ٣١
- ٣ - الأحزاب (٣٣) - ٢٣

٤ - جزء من شطر بيت مشهور سار مثلاً وهو :

إذا قالت حدام فصدقوهما فان القول ما قالت حدام
ينسبه صاحب لسان العرب الى وسیم بن طارق ويقال لجیم بن صعب وحدام امراته .

٥ - شطر من بيتین لسلام بن الولید :

فضحوت واستأنفت سيرة مجمل
عرف المحل ثبات دون النزل

٦ - جزء من بيت لنصیر بن دباح يصف بكاء ورقاء :

بكاهما فقلت الفضل للمتقدم
ولكن بكت قبلني فهیچ لي البکا
وبقبه بضعة آيات نورد منها :

هتوف الفحى مشغوفة بالترنم ٠٠٠
اليهـما غروب الدمع في كل سجم
بسعدى شفقت النفس قبل الندم

ونبه شوقى بعد ما كنت نائماً
بكـت شجـوها تحت الدـجـى فتسـاجـمت
فلـو قـبل مـبـاكـها بـكـيت صـبابـة

- ٧ - مطلع معلقة عنترة وهو أشهر من يشار إليه .
 ٨ - جزء من بيت المتنبي :
- وان تكون تقلب الغلباء عنصرها فان في الخمر معنى ليس في العنبر
- ٩ - ينشر صديقنا الأستاذ عبدالكريم ذهور « كتاب الحبة » تأليف أبي اسحاق ابراهيم بن عبدالله بن الجيد الخلقي على صفحات مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق .
- هذا وقد الف الدكتور محمد حسن عبدالله كتاباً بعنوان « الحب في التراث العربي » ونشره في سلسلة الكتب الثقافية التي يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب بالكويت .
- ١٠ - لا يبعد أن تكون الأبيات لأبي نواس وهو ما هو في الاطلاع على أسانيد الحديث . والأسماء الواردة في الشعر جميع أصحابها من رواة الأحاديث وهم :
- آ - الخفاف هو أبو مخلد عطاء بن مسلم من أهل حلب مات سنة ١٩٠ هـ .
 الانساب وخلاصة تذهيب الكمال ٢ / ٢٣١
- ب - وائل بن حجر بن سعد مسروق دوى عن النبي ﷺ مات في ولاية معاوية .
 تهذيب التهذيب ١١ / ١٠٨
- ج - خالد بن مهران الحداء البصري أبو المنازل مات سنة ١٤٠ أو ١٤١ هـ .
 الانساب ٤/٨٦ وخلاصة تذهيب الكمال ٢٨٤/١
- د - جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام صحابي مشهود عرف بكثرة حديثه .
 خلاصة تهذيب الكمال ١ / ١٥٧
- ه - سعير بن كدام أبو سلمة الكوفي أحد الأعلام مات سنة ١٥٣ هـ .
 خلاصة تذهيب الكمال ٣/٢٢
- و - عامر - لعله أراد عامراً الشعبي ولا يوجد غيره من يصرح باسمه في الرواية انظر اخباره في تاريخ دمشق (عامر - عائد) توفي سنة ١٣٨ .
- ز - ابن جرير هو عبد الملك بن أبي بكر بن عبد الرحمن مات في أول خلافة هشام .
 خلاصة تذهيب الكمال ٢ / ١٧٥
- ح - سعيد بن المسيب بن مسروق دوى عن النبي ﷺ .
 تهذيب التهذيب ١١ / ١٠٨
- ط - قتادة بن دعامة السدوسي أبو الخطاب البصري أحد الآئمة توفي سنة ١٢٧ .
 خلاصة تذهيب الكمال ١ / ٢٨٤
- ١١ - أخبار الجنون الواردة ماخوذة من الأغاني ومن تزيين الأسواق .
 ١٢ - كتاب الزهرة .
 ١٣ - كتاباً أخبار العلاج وديوانه .
 ١٤ - ترجمة السهوردي في « ارشاد الأديب » .
 ١٥ - ايوان اقبال : مختارات من شعره نظم المساوي علي شعلان ص ١١٣ .

★ ★ ★